صفحات مشرقة
من تراث
الحضارة العربية
الإسلامية

الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية

الأستاذ: محمد محمد النهامي

شهد العالم الإسلامي أحداثاً مثيرة وعلى جانب كبير من الأهمية مع تباشير مطلع النصف الثاني من القرن السابع الهجري (١٣م)؛ حيث قامت دولة سلاطين المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية في مصر؛ ومن ثمّ هيأت لهم الظروف أن يبسطوا سيطرتهم على الشام والحجاز واليمن فيما بعد.

ويجمل بنا في البداية أن نعطي نبذة تاريخية عن دولة سلاطين المماليك التي شغلت حيزاً من التاريخ الإسلامي وتركت بصماتها واضحة جلية على مختلف بلدان العالم الإسلامي.

وقد بدأ ظهور طبقة سلاطين المماليك في مصر منذ قيام الدولة الأيوبية على يد مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حيث استكثر من المماليك، وتبعه في ذلك أخوه العادل أبو بكر ومن جاء بعدهم من أبناء البيت الأيوبي.

وكان معظم هؤلاء المماليك من الترك الذين ينتمون إلى شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وفارس والتركستان وبلاد ما وراء النهر(١)، إلى جانب المماليك الجراكسة الذين ينتمون إلى قبائل الجركس التي استوطنت المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خوارزم(٢).

وينسب إلى الصالح نجم الدين أيوب **(٦٣٦ ـ ٦٤٧ هـ/ ١٢٣٨ ـ ١٢٤٩ م)** الإكثار من جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية، حيث تكونت منهم طبقة سلاطين المماليك الذين قاموا على حكم مصر فيما بعد(٣). فقد قام بجلب أعداد كبيرة منهم؛ تفوق ما جلبه أسلافه من سلاطين الأيوبيين(٤)، ولذا يعتبره بعض المؤرخين **«أبو الترك» بالديار المصرية**(٥).

أما عن أسلوب التربية والتعليم والتدريب؛ فقد حظي المماليك بالرعاية والاهتمام من جانب السلاطين لتربيتهم وتدريبهم في الطباق(٦) على أيدي المتخصصين في شتى المجالات؛ فمنهم المؤدب الذي يقوم بتعليمهم اللغة العربية والكتابة والقراءة؛ والفقيه لتعليمهم القرآن الكريم، وتلقينهم مبادئ وأصول الشريعة الإسلامية، وحضِّهم على ملازمة الأذكار والصلوات والتمسك بالفضائل الدينية؛ هذا فضلاً عن المتخصصين في مجال التعليم والتدريب على مختلف أعمال القتال وأساليب الحرب وفنون الفروسية(٧).

ونتيجة لما حظي به المماليك من التعليم والتدريب على أعمال الفروسية في الطباق؛ صار لهم شأن كبير في مجال الحرب والقتال؛ وهي الظاهرة العامة التي اتسمت بها دولتهم فيما بعد، حيث صارت كمؤسسة عسكرية ذات صبغة حربية؛ تصدت لأعمال الجهاد والدفاع عن الإسلام وحمايته من الأخطار الخارجية.

وكانت أولى حركات الجهاد عن الإسلام؛ والتي قام بها المماليك؛ هي التصدي لهجوم التتار الذين قاموا باجتياح المشرق الإسلامي بقيادة هولاكو خان؛ بالرغم من أن دولة المماليك كانت لاتزال تحبو متهيئة لاتخاذ الخطوات الأولى لقيامها ونشأتها(٨).

وعقب قيام المغول بالزحف على بغداد ـ عاصمة الخلافة العباسية ـ والاستيلاء عليها سنة **٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)** وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وولده(٩)، ومن ثمّ الاستيلاء على

مدن الشام التي سقطت في أيديهم مدينة بعد أخرى، ولم يبق أمامهم في الميدان سوى دولة المماليك. وأرسل المغول إليهم كتب التهديد والوعيد لدفعهم إلى الاستسلام(١٠)، وليفت في عضدهم ويضعف من شأنهم(١١).

وبالرغم من قسوة الظروف التي أحاطت بالمماليك؛ لم يرضخوا للتهديد، وعقد السلطان سيف الدين قطز مجلساً للحرب، وتشاور مع أمراء المماليك؛ واتحدت كلمتهم على مواجهة التتار مهما كانت النتائج؛ دفاعاً عن الإسلام وحماية للمسلمين من شرورهم، ويأمر قطز بقتل رسل هولاكو خان، وطيف برءوسهم في الأسواق استهزاءً وسخرية منه؛ وانتقاماً لما فعله بالمسلمين سواء في العراق أو الشام، واستعد المماليك لمواجهة التتار ومبادرتهم بالقتال(١٢).

وبين مشاعر التحدي لغطرسة التتار؛ والتصدي لهجماتهم الغاشمة المدمرة على العالم الإسلامي؛ ارتفعت معنويات المماليك وزاد حماسهم؛ حباً ورغباً في الجهاد والزود عن الإسلام - وبدأت المعركة ودار القتال في عين جالوت(١٣)؛ في أيام مباركة من شهر رمضان **(٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/٣ سبتمبر ١٢٦٠م)** وتدور دائرة الهزيمة على هولاكو خان وقواته من التتار(١٤).

وهنا؛ وعلى أرض المعركة تتضح إحدى المظاهر الرائعة لجهاد المماليك دفاعاً عن الإسلام، وبعد انتهاء المعركة يخر السلطان سيف الدين قطز ساجداً لله؛ شكراً على ما منحهم من النصر المبين ضد عدو غاشم للإسلام والمسلمين(١٥).

وقد نتج عن الانتصار الرائع الذي حققه المماليك على التتار، أن أحييت الأمل في نفوس المسلمين، وكسرت شوكة التتار، وأدركوا بأن هناك زعامة قوية للمسلمين يمكنها التصدي لحمايتهم وصيانة مقدساتهم من العبث، وصار المماليك هم فرسان الحلبة بلا منازع؛ خاصة بعد أن أجبروا بقايا التتار على الفرار من الشام(١٦).

ولم يقتصر دور المماليك على التصدي لهجمات التتار على العالم الإسلامي فقط؛ بل حرصوا على مواصلة أعمال الجهاد والذود عن الإسلام ضد القوى الصليبية التي عكرت صفو أمن

المسلمين وسلامتهم في المشرق الإسلامي، واستولت على الكثير من مدن الشام وبيت المقدس ـ أولى القبلتين ـ وبلغت بهم الجرأة حدا من الوقاحة بحيث هددت أمن وسلامة الأراضي الحجازية، مما يؤذي مشاعر المسلمين الروحية ومقدساتهم الدينية.

وقد حرص المماليك على تقديم يد العون والمساعدة لحماية المسلمين والتيسير عليهم لأداء مناسك الحج، خاصة بعد أن آلت إليهم زعامة القوى الإسلامية عقب القضاء على الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار **(٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)**(١٧) وقيام المماليك بإعادة إحيائها مرة أخرى في مصر سنة **٦٥٩هـ (١٢٦١م)**(١٨) ، وعن هذا الطريق آل إليهم حكم البلاد نيابة عن الخليفة العباسي، واعتبر ذلك من أهم مراسم تقلد الحكم والسلطنة(١٩) . ومنذ ذلك التاريخ؛ انتقل إلى المماليك دور الزعامة للعالم الإسلامي، مما جعلهم يقدمون المزيد من التسهيلات للحجاج، والقيام بالإصلاحات العديدة للأماكن المقدسة في الأراضي الحجازية، تيسيراً على المسلمين في أداء مناسكهم وقضاء فريضة الحج في يسر وطمأنينة.

وتتجلى مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بأمور الحجاج في تنظيم قيام ركب الحج من مصر وفق مراسم خاصة؛ فضلاً عن القيام بعمل الإصلاحات وتقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق في الأراضي الحجازية من توفير الأمن والحماية لركب الحج، وحفر الآبار لتوفير المياه عصب الحياة، والاهتمام بالأسواق التي تمدهم بالمؤن وما يحتاجون إليه، إلى جانب القيام بعمل الإصلاحات ـ إذا استدعى الأمر ـ بالحرم المكي أو المسجد النبوي؛ وتخصيص الأوقاف للإنفاق على القائمين بأمور الحرمين.

وكان للمماليك أيضاً دور بارز في نشر وازدهار الثقافة الإسلامية بالأراضي الحجازية نتيجة لاهتمامهم بالعلماء والمتعلمين؛ وتخصيص أموال الأوقاف المختلفة للإنفاق عليهم؛ فضلاً عن توفير الكتب بوجه عام مما كان له أثره البارز في ازدهار الحياة الثقافية بالأراضي الحجازية؛ ونقصد من ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة على وجه الخصوص.

* * *

أما عن الحج؛ فقد حرص سلاطين المماليك على بذل غاية جهدهم في الاهتمام بتسهيل

تأدية مناسك الحج للمسلمين، واهتموا بتنظيم الاحتفالات المؤثرة التي تهز المشاعر، وتحرك نوازع الرغبات الروحية الكامنة تشوقاً لأداء فريضة الحج(٢٠).

وأولى خطوات تنظيم قيام ركب الحجاج؛ تتمثل في النداء بالحج ودوران المحمل إيذاناً بقرب خروج الحجاج، والنداء بالحج سنة للمسلمين مأثورة عن النبي ﷺ، حيث كان ينادي بالمدينة المنورة بالحج في أول شهر ذي القعدة من كل عام؛ على اعتبار أن المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة تستغرق عشرة أيام؛ فقدّم النداء بثلاثة أمثالها، وكذلك كان الحال في تحديد الفترة الزمنية التي يستغرقها ركب الحج من مصر إلى الحجاز؛ والتي قُدرت بأربعين يوماً، ولذا كان النداء بالحج يتم في أوائل النصف الثاني من شهر رجب؛ سواء في مصر أو دمشق؛ وقد حرص المماليك بهذه المناسبة على دوران المحمل «**المخصص لحمل كسوة الكعبة المشرفة**» وسط احتفال كبير يقام لهذه المناسبة.

وكان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أول من أدار المحمل في مصر، واضعاً بذلك مراسم احتفال النداء بالحج ودوران المحمل إيذاناً بقيام قافلة الحج متوجهة للأراضي الحجازية(٢١).

وقد جرت العادة أن يدور المحمل مرتين في السنة وسط مظاهر الاحتفال والحفاوة؛ الأولى في النصف الثاني من شهر رجب عند بدء النداء بالحج؛ أما الثانية فتكون في النصف الثاني من شهر شوال عند بدء قيام ركب الحج متوجهاً إلى الحجاز(٢٢).

ويعتبر يوم دوران المحمل من الأيام المشهودة حيث يركب فيه أهم الشخصيات في المجتمع المملوكي، ومنهم القضاة الأربعة؛ ووكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء، كما يقوم أصحاب الحوانيت بتزيينها على امتداد الطرق التي يمر منها الركب(٢٣) كما يسير أمام المحمل؛ الأمير المعين للإشراف على سفر ركب الحج إلى الحجاز في تلك السنة، وبصحبته مجموعة من الأعوان القائمين على حراسة الركب وتأمين سلامة الحجاج(٢٤).

وبعد أن يتم الركب دورانه بالقاهرة، يتجه إلى البركة (**بركة الحبش**) انتظاراً لتجمع

الحجاج، ومن ثم تبدأ القافلة في المسير إلى الأراضي الحجازية، وغالباً ما يتحرك ركب الحج على دفعتين، حيث يسير ركب المحمل ومعه كسوة الكعبة المشرفة، ثم يتبعه ركب الحجاج في اليوم التالي(٢٥)، وعلى كل منهما أمير لقيادة الركب(٢٦).

وتسيير ركب الحجاج وتأمينه على هذه الصورة، كان يمثل إحدى مظاهر اهتمام المماليك بالمسلمين في طريقهم لتأدية مناسك الحج بالأراضي الحجازية، واتخذت الاحتياطات الواجبة لضمان سلامة الحجاج على طول الطريق إلى الحجاز، فبعد أن يأخذ ركب الحج أهبة الاستعداد للمسير، يلتف الفرسان حول القافلة وهم يحملون المشاعل، حيث اعتاد ركب الحج أن يرحل غالباً في النصف الأخير من الليل، كما يستحثون من يتخلف عن الركب، ويساعدون الضعيف العاجز(٢٧).

كما يقوم الدليل بالسير أمام القافلة ليرشدها إلى الطريق الصحيح. وهكذا تسير القافلة وفق نظام محكم دقيق، فلا يرحلون ولا ينزلون إلا بإذن أمير الركب عندما تدق الطبول لأنباء الحجاج بالنزول للراحة أو التحرك واستكمال المسير(٢٨).

ونظراً لكثرة وضخامة أعداد الحجاج في ركب الحج ـ والتي بلغت في بعض السنوات مايزيد على المائتي الف في ركب مصر وحده ـ فقد وضعت كل مجموعة داخل القافلة لنفسها علامة يتعارفون عليها وتميزهم عن المجموعات الأخرى، حتى لا يضل رفاقهم(٢٩) تماماً كما نشاهد ذلك اليوم بين مجموعات الحجاج التي تنتمي إلى مختلف البلدان الإسلامية، حيث تقوم كل مجموعة بوضع علامة أو شارة يتعارفون عليها وحتى لا يتغيب الحجاج عن رفاقهم.

ولم يكن الأمر مقصوراً على الاهتمام بركب الحج وتأمينه فقط، بل زودت القافلة بكل احتياجات المعيشة من مأكل ومشرب وملبس(٣٠)، فضلاً عن توفير أرباب الحرف والصنائع المختلفة التي يحتاج إليها الحجاج في الحل والترحال، وكذلك مجموعة من الأطباء والمجبرين والأدلاء والأئمة والمؤذنين ومغسلي الموتى وغيرهم، علاوة على ما يحتاجون إليه من الأدوية والعقاقير اللازمة للعلاج(٣١) تماماً كما يحدث في وقتنا الحاضر من تواجد البعثات الطبية في موسم الحج لتقديم العلاج والرعاية الطبية للحجاج.

ومن وصف ركب الحاج السلطاني، يمكننا التعرف على مدى الاستعدادات التي كانت تتخذ للتيسير على الحجاج؛ فعندما شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الحج عام ٧١٩هـ (١٣٢٠م) تم تجهيز الركب بكل ما يحتاج إليه طوال فترة الحج، حيث جمع سائر أصحاب الحرف المختلفة، كما رتب الأفران والخبازين لعمل ما يحتاج إليه من خبز، وجهز الدقيق والروايا والأشربة، بالإضافة إلى خمسمائة جمل تحمل الحلوى والفواكه، ومائة وثمانين جملاً تحمل الحب رمان واللوز، ومن الطيور ألف دجاجة ومن الأوز ثلاثة آلاف، فضلاً عن تجهيز أربع سفن في البحر الأحمر، تحمل مائة وثلاثين ألف أردب من الشعير لتوفير احتياجات دواب القافلة من العليق، واتجهت سفينتان إلى ينبع والأخريان إلى جدة(٣٢). مما يجعلنا نتعرف على مدى الاستعدادات والإمدادات التي كانت تبذل من جانب المماليك لتجهيز ركب الحج في كل عام.

• • •

أما عن الماء ـ عصب الحياة ـ فقد حرص المماليك على توفيرها طوال الطريق إلى الحجاز؛ والعمل على حفر الآبار وصيانتها وجعلها صالحة لخدمة المسلمين، خاصة تلك التي كانت تصادف ركب الحج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج للتزود منها بما يلزمهم من الماء العذب.

وكان أول ما يقابله ركب الحج من تلك الآبار في **عقبة آيلة** بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة، حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة. والموقع التالي لحط الرحال وأخذ قسط من الراحة في **عيون القصب** بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوافر بها ماء جارٍ عذب، وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب في **الوَجْه** للتزود منها بمائها العذب الطيب، كما يتوقف ركب الحج للتزود بالماء في **الحوراء** بعد مسيرة ثلاثة أيام (وفيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالتمر)، وتستمر القافلة في السير والتزود بالمياه في **المغيرة** على مسافة يومين، ثم **ينبع** على مسافة يومين؛ ومنها إلى **الدهناء** مسيرة نصف يوم وبها ماء طيب، ثم تصل القافلة إلى **بدر** بعد مسيرة يومين وبها ماء عذب، ومنها إلى **رابغ** مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام(٣٣). وحظيت الآبار

الموجودة في هذه الأماكن بالإهتمام والصيانة من جانب سلاطين المماليك، حرصاً منهم على توفير المياه لركب الحج.

كما حرص المماليك على إصلاح آبار المياه الواقعة بين القاهرة ومكة المكرمة، حيث أرسلوا إلى الحجاز عام **٨٣٤هـ** «**الأمير شاهين الطويل**» ومعه كثير من المشاة والحجارين والأزواد والأمتعة لإصلاح المياه والآبار، وحفر آبار جديدة في الأماكن العطِشة؛ وقاموا بحفر بئرين أحدهما في **راغم** والآخر في **قبقاب** ـ كما استجد القاضي زين الدين عبد الباسط في طريق الحجاز بئراً أخرى عند **عيون القصب**، مما عاد على الحجاج بالنفع الكثير نتيجة لحفر تلك الآبار(٣٤).

وتيسيراً على الحجاج في طريقهم إلى الحجاز، لم يدخر المماليك وسعاً في القيام بالإصلاحات التي تسهل على جموع المسلمين تأدية الفريضة في يسر وأمان؛ من ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة **٧٣٢هـ** من تكليف الأمير أيْتمشى بالتوجيه إلى **عقبة آيلة** ـ ملتقى حجاج الشام ومصر والسودان وبلاد المغرب والأندلس ـ وبصحبته مائة رجل من الحجارين لتوسيعها وإزالة وعرها وتسهيل صعودها على الحجاج(٣٥).

وحرص المماليك على الاهتمام بالأسواق على طول الطريق من مصر إلى الحجاز؛ وكانت هذه الأسواق تعتبر بمثابة أماكن لتجمع واستراحة الحجاج، وفي نفس الوقت إمدادهم بما يلزمهم من المؤن والزاد، وفي ذلك ما يحقق النفع والفائدة للمسلمين. وكان أول هذه الأسواق يقع **ببركة الحبش** ـ بالقرب من القاهرة ـ حيث يتجمع هناك الحجاج، ويستكملون من أسواقها جهازهم وما يلزمهم، كما وجد في **عقبة آيلة** سوق كبير عامر بالطعام وما يلزم الحجاج في سفرهم، خاصة وأن ركب الحج الشامي ينضم إلى ركب الحج المصري في هذه المدينة، ومن ثم كان على التجار الذهاب مبكراً إليها ويصحبتهم مختلف أنواع التجارات اللازمة للحجاج. هذا فضلاً عن أسواق **الحوراء**، **وبدر**، **ورابغ**، والأسواق الرئيسية التي كانت توجد في مكة والمدينة وتزداد ازدهاراً في موسم الحج(٣٦).

وزيادة في التيسير على الحجاج بالأراضي الحجازية، يصدر السلطان الأشرف برسباي

الدقماقي مرسوماً سنة **٨٢٩هـ**، قرئ في مكة المكرمة، بمنع الباعة من مضايقة الحجاج ببسط بضائعهم أيام موسم الحج في المسجد الحرام، وكذلك منع الناس من ضرب الخيام بالمسجد؛ على مصاطبه أو أمامها، وذلك حرصاً على راحة وسلامة حجاج بيت الله الحرام(٣٧).

* * *

أما عن بيت الله الحرام بمكة المكرمة ـ مقصد الحجاج وقبلة المسلمين ـ فقد حظي بجانب كبير من إهتمام سلاطين المماليك، حيث بذلوا له الرعاية التامة وحرصوا أشد الحرص على صيانته كلما أصابه ضرر من الحريق أو السيول(٣٨).

واعتبر سلاطين المماليك ما يقومون به من إصلاحات لبيت الله الحرام واجباً مقدساً؛ ولذا بذلوا ما في وسعهم لراحة الحجاج والاهتمام بالكعبة المشرفة، من ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٣هـ. بعمل باب من خشب السنط الأحمر، وصفحه بفضة زنتها خمسة وثلاثون ألف وثلثمائة درهم، ووضعه على باب الكعبة(٣٩).

وحرص المماليك على إرسال الكسوة إلى الكعبة المشرفة في كل عام صحبة ركب الحج المصري، وقد استمر ذلك طوال عهد المماليك(٤٠). وكانت هذه الكسوة تنسج بالقاهرة (بمشهد الحسين) من الحرير الأسود، وتطرز بكتابة بيضاء في نفس النسيج، ومنذ أواخر القرن التاسع الهجري (**١٤م**) على عهد السلطان الظاهر برقوق؛ استقرت هذه الكتابة صفراء مشعرة بالذهب، وخصصت دار الكسوة لصناعتها، كما خصصت أموال الأوقاف للإنفاق عليها(٤١).

ومن مظاهر إهتمام سلاطين المماليك بالكعبة المشرفة؛ ما نشاهده في أحداث سنة **٦٦٧هـ**. عندما قام السلطان الظاهر بيبرس بالحج، حيث فتحت له الكعبة وقام بغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة وتناول أيدي الناس ليدخلوها وهو بينهم، وقد تكرر ذلك عدة مرات طوال العصر المملوكي(٤٢).

كما حظيت المدينة المنورة ومسجد رسول الله ﷺ بجانب كبير من إهتمام سلاطين المماليك، فعندما إحترق المسجد النبوي في ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان سنة **٦٥٤هـ** ـ من مسرجة

القيم ـ وذهبت سائر سقوفه وبعض عمده، واحترق سقف الحجرة الشريفة(٤٣)، حرص السلطان الظاهر بيبرس على عمارة مسجد الرسول ﷺ سنة **٦٦٣ هـ**(٤٤)، وأرسل لذلك الغرض الأمير جمال الدين ـ نائب دار العدل ـ وسيّر معه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة مسجد رسول الله ﷺ، كما سيرت الغلال والجرايات للصناع. وفرغ من عمل الإصلاحات اللازمة في أربع سنوات(٤٥).

أما في سنة **٦٨٦ هـ** فقد هطل مطر شديد (في ليلة الرابع من شهر المحرم)؛ فوكفت(٤٦) سقوف المسجد النبوي والحجرة، وخربت عدة من المساكن والمنازل، وأتلفت السيول الكثير من النخيل والمزارع، وسارع السلطان سيف الدين قلاوون لنجدة أهل المدينة المنورة، وقام بعمل الإصلاحات اللازمة للمسجد النبوي الشريف(٤٧).

* * *

ولم يكن اهتمام سلاطين المماليك بالأراضي الحجازية مقصوراً فقط على القيام بالإصلاحات اللازمة لتأمين الحج وراحة المسلمين، بل شمل أيضاً الإنفاق بسخاء على المجاورين بمكة المكرمة والمدينة المنورة؛ فعندما قام السلطان الظاهر بيبرس بالحج سنة **٦٦٧ هـ**؛ زار المدينة المنورة وأحسن إلى أهلها ونظر في أحوالها؛ كما تصدق على المجاورين بمكة المكرمة(٤٨).

وعندما قام الأمير سلار (كافل السلطان الناصر محمد بن قلاوون) بالحج سنة **٧٠٣ هـ**، فعل في الحجاز أفعالاً جميلة؛ منها: قيامه بكتابة أسماء المجاورين بمكة المكرمة؛ وأوفى عنهم جميع ما كان عليهم من الديون، وأعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مؤنة سنة، وعندما وصلت السفن إلى جدة حاملة الغلال والمؤن قام بتفريق ما فيها على سائر أهل مكة، وكتب أسماء سائر الفقراء وجميع الأشراف وحمل إليهم الدنانير والدراهم والغلة بقدر كفاية كل منهم لمدة سنة، فلم تبق بمكة المكرمة إمرأة ولا رجل؛ ولا صغير أو كبير إلا وعمه ذلك؛ وفرق فيهم الذهب والفضة والغلال والسكر والحلوى، كما بعث إلى جدة من يقوم بنفس العمل مع أهلها من الإنفاق والتصدق، وحمل ما بقي إلى المدينة النبوية حيث عم أهلها بالعطايا مما جعل الناس بالحرمين يرددون «يا سَلّار!! كفاك الله شر النار» وذلك لكثرة ما فعله من الخير بالأراضي الحجازية(٤٩).

وكذلك ما قام به الأمير بُشتاك عندما ذهب إلى الحج سنة ٧٣٩ هـ حيث فرق الأموال على المسلمين المجاورين بمكة المكرمة والأشراف وغيرهم من أهل مكة، ولم يبق أحد بمكة حتى أُسْدي إليه معروفاً، وكان جملة ما فرق من الأموال ثلاثين ألف دينار وأربعمائة ألف درهم؛ سوى الغلال التي وصلت إليه في المراكب. وعندما توجه إلى المدينة المنورة بعد قضاء نسكه؛ فعل بها خيراً كثيراً(٥٠).

◦ ◦ ◦

كما حظيت الحياة الثقافية بالحجاز باهتمام المماليك حيث ازدهرت الثقافة الإسلامية بعلومها المختلفة بالأراضي الحجازية، خصوصاً في مكة المكرمة والمدينة المنورة نتيجة لما قام به المماليك من الاهتمام بالعلماء وتشجيعهم، وتخصيص الأوقاف وما يتحصل منها للإنفاق على القائمين بأمور الثقافة الإسلامية والعلوم الدينية؛ وبصفة خاصة القرآن الكريم؛ كتابة وتلاوة وقراءة وحفظاً؛ فضلاً عن التشجيع الدائب للعلماء مما ساعد على ازدهار العلوم الدينية بالأراضي الحجازية، وصارت مكة المكرمة والمدينة المنورة من أهم المراكز لنشر الثقافة الإسلامية؛ وتزخر كتب الرحالة بأسماء العلماء الذين قاموا على بث العلوم الدينية من الأراضي الحجازية(٥١).

◦ ◦ ◦

هذه نبذة موجزة عن مظاهر الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية، والتي لم تكن مقصورة على أوجه البر والإصلاح فقط؛ بل شملت عدة أمور وتضمنت عدة جوانب سواء المادية أو الروحية أو الفكرية. وربما يُعد العصر المملوكي من أزهى العصور التي تركت آثارها واضحة على الأراضي الحجازية بخاصة؛ والعالم الإسلامي بعامة

● ● ●

الهوامش :

(١) **ابن خلدون**: العبر، ح٥، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢؛ علي ابراهيم حسن: تاريخ المماليك، ص٢٩.

(٢) **القلقشندي**: صبح الأعشى، ح٤، ص١٥٠، ٤٤١، ٤٥٣.

(٣) **ابن وصيف شاه**: عجائب الأمور، مخطوط، ورقة ٥٩ب.

(٤) **العيني**: السيف المهند، ص٢٠٢؛ ابن أبي السرور: عيون الأخبار، مخطوط، ح٢، ورقة ٩٤ب.

(٥) **المقدسي**: دول الإسلام، مخطوط، ج١، ورقة ١٤؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١٩.

(٦) **يشبه الطباق في تنظيمه**، المدارس والكليات العسكرية في الوقت الحاضر.

(٧) **ابن خلدون**: العبر، ج٥، ص ٣٧٠؛ ماجد: طومانباي، ص ٢٠ ـ ٢١؛ وانظر أيضاً: نديم: الفن الحربي المملوكي، ص ٣١.

(٨) **ابن خلدون**: التعريف بابن خلدون، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢؛ ابن العماد: شذرات، ج٥، ص ٢٠٩. العريني: المغول، ص (ب) من المقدمة.

(٩) **أبو شامة**: الذيل على الروضتين، ص ١٩٨ ـ ١٩٩؛ ابن العماد: شذرات، ج٥، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(١٠) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤، أبو شامة: نفس المصدر السابق، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤؛ ابن العماد: شذرات، ج٥، ص٢٧٢.

(١١) **ابن بهادر**: فتوح النصر، مخطوط، ورقة ٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(١٢) **الهمذاني**: جامع التواريخ، ج١، ص ٣١٠ ـ ٣١٢.

(١٣) **المقريزي**: السلوك، ج١، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(١٤) **ابن بهادر**: المصدر السابق، ورقة ٩٤، ٩٥؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٢٠ ـ ١١٢٥.

(١٥) **النويري**: نهاية الأرب، ج٢٨ مخطوط، ورقة ٣٤؛ ابن أبي السرور: عيون الأخبار، مخطوط، ج٢، ورقة ١٩٣ ـ ١٩٥.

(١٦) **أبو شامة)**: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٧؛ ابن العماد: شذرات، ج٥ ص ٢٩٣.

(١٧) **ابن العماد**: شذرات؛ ج٥، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

(١٨) **الذهبي**: دول الإسلام، ج٢، ص ١٢٥.

(١٩) **ابن خلدون**: العبر، ج٥، ص ٥٤٢، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٥٢ ٢، ص ٥٢ ـ ٥٣، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧.

(٢٠) **ابن كثير**: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢١) **المقريزي**: الذهب المسبوك، ص ١١.

(٢٢) **ابن الصيرفي**: نزهة النفوس، ج٣، ص ٧٣، ١٩٤.

(٢٣) **القلقشندي**: صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٧.

(٢٤) **ابن بطوطة**: الرحلة، ج١، ص ٦٢.

(٢٥) **السخاوي**: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص ٣٥٣.

(٢٦) **ابن الصيرفي**: نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٨، ١٦١.

(٢٧) **العبدري**: الرحلة، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢٨) **السيوطي**: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣١٠.

(٢٩) **العبدري**: الرحلة، ص ١٥٦.

(٣٠) **المقريزي**: الذهب المسبوك، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٣١) **السيوطي**: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣١٠.

(٣٢) **المقريزي**: الذهب المسبوك، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣٣) **العبدري**: الرحلة، ص١٥٧ ـ ١٦٥.
(٣٤) **ابن بطوطة**: الرحلة، ج١، ص ٣٢.
(٣٥) **المقريزي**: السلوك، ج٢، ص ٣٥٣.
(٣٦) **العبدري**: الرحلة، ص ١٥٧ ـ ١٦٧.
(٣٧) **المقريزي**: السلوك، ج٤، ص ٧٥٤.
(٣٨) **ابن العماد**: شذرات الذهب، ج٧، ص ١٣.
(٣٩) **المقريزي**: السلوك، ج٢، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٤٠) **الأزرقي**: أخبار مكة، ج١ ص ٣٧ ـ ٣٩، ٢٥٥ ـ ٢٥٨، ٣٥٥ ـ ٣٧٢..
(٤١) **القلقشندي**: صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٧.
(٤٢) **ابن كثير**: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٥٥، المقريزي: السلوك ج١، ص ٥٨١.
(٤٣) **المقريزي**: السلوك، ج١ ص ٣٩٩.
(٤٤) **ابن العماد**: شذرات، ج٥، ص ٣١٢.
(٤٥) **المقريزي**: السلوك، ج١، ص ٥٤٤.
(٤٦) أي قطر ماء المطر من سقفه (**محيط المحيط**).
(٤٧) **المقريزي**: السلوك، ج١، ص ٨٣٨.
(٤٨) **ابن كثير**: **البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٥٥**.
(٤٩) **المقريزي**: السلوك، ج٢، ص ٢ ـ ٥.
(٥٠) **المقريزي**: نفس المصدر السابق، ص ٤٧٢.
(٥١) **ابن مرزوق**: المسند الصحيح، ص ٢٥١.

●●●●

ثبت بأهم المصادر والمراجع

– **الأزرقي** (أبو الوليد محمد بن عبدالله): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، ط٣، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).
٢ – **ابن بهادر** (محمد بن محمد المؤمني): فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، ٣ أجزاء، مخطوط رقم ٢٣٩٩ تاريخ، دار الكتب بمصر.
٣ – **ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد)**: رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٤ – **ابن تغري بردى (جمال الدين ألو المحاسن)**: النجوم الزاهرة، ١٧ جزء، القاهرة ١٩٦٣م.
٥ – **ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن)**: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٨ أجزاء، بيروت سنة ١٩٧١م.
٦ – **الذهبي (أبو عبدالله محمد)**: تاريخ الإسلام، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٦٧م.

٧ - **السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)**: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء.
٨ - **ابن أبي السرور (محمد بن محمد)**: عيون الأخبار ونزهة الأبصار، مخطوط ٧٢٩١ج دار الكتب المصرية.

٩ - **السيد الباز العريني (دكتور)**: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
١٠ - **السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)**: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٧م.
١١ - **أبو شامة (أبو محمد عبد الرحمن)**: الروضتين في أخبار الدولتين، : جزءان، طبع بيروت..
١٢ - **ابن الصيرفي (على بن داود)**: نزهة النفوس والأبدان، القاهرة ١٩٧٠م.
١٣ - **العبدري (أبو عبدالله محمد)**: الرحلة المغربية، الرباط ١٩٦٨.
١٤ - **عبد المنعم ماجد (دكتور)**: طومانباي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م.
١٥ - **علي ابراهيم حسن (دكتور)**: تاريخ المماليك البحرية، النهضة المصرية ١٩٤٤م.
١٦ - **العيني (أبو محمد محمود بن موسى)**: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، القاهرة ١٩٦٧م.
١٧ - **ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي)**: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ أجزاء.
١٨ - **القلقشندي (أبو العباس أحمد)**: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٥ أجزاء القاهرة سنة ١٩٦٣م.
١٩ - **ابن كثير (أبو الفراء اسماعيل)**: البداية والنهاية، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٧٧م.
٢٠ - **المقريزي (أبي العباس أحمد)**: السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٢ جزء، دار الكتب ١٩٧٣م.
٢١ - **المقريزي (أبي العباس أحمد)**: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٢٢ - **المقدسي (أبو حامد محمد)**: دول الإسلام الشريفة البهئة، مخطوط برقم/ ٢٣٢٤ محافظة الاسكندرية.
٢٣ - **ابن مرزوق (محمد بن أحمد)**: المسند الصحيح الحسن، نشر الجزائر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٢٤ - **محمود فهيم نديم**: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م.
٢٥ - **النويري (أحمد بن عبد الوهاب)**: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، مخطوط برقم ٥٥١ معارف عامة - دار الكتب المصرية.

٢٦ - **الهمذاني (رشيد الدين فضل الله)**: جامع التواريخ، نشر وزارة الثقافة بمصر (بدون تاريخ).
٢٧ - **ابن وصيف شاه (ابراهيم)**: جواهر البحور وعجائب الأمور، مخطوط برقم ٤٠٢٤ تاريخ - محافظة الاسكندرية.
٢٨ - **Muir (William, E.)** : The Mameluke, London, 1896.